

تفسير ابن كثير

وَمَنْ يُولَّهُمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحِيِّزًا إِلَىٰ فِتْنَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِّنَ اللَّهِ
وَمَا وَاوَاهُ جَهَنَّمَ^ط وَيُسَّ الْمَصِيرُ

(ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال) أي : يفر بين يدي قرنه مكيدة ؛ ليريه أنه [قد
[خاف منه فيتبعه ، ثم يكر عليه فيقتله ، فلا بأس عليه في ذلك . نص عليه سعيد بن
جبير ، والسدي . وقال الضحاك : أن يتقدم عن أصحابه ليرى غرة من العدو فيصيبها . (أو
متحيزا إلى فئة) أي : فر من هاهنا إلى فئة أخرى من المسلمين ، يعاونهم ويعاونوه فيجوز
له ذلك ، حتى [و] لو كان في سرية ففر إلى أميره أو إلى الإمام الأعظم ، دخل في هذه
الرخصة . قال الإمام أحمد : حدثنا حسن ، حدثنا زهير ، حدثنا يزيد بن أبي زياد ، عن
عبد الرحمن بن أبي ليلى ، عن عبد الله بن عمر - رضي الله عنهما - قال : كنت في
سرية من سرايا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فخاص الناس حيصة - وكنت فيمن
خاص - فقلنا : كيف نصنع وقد فررنا من الزحف وبؤنا بالغضب ؟ ثم قلنا : لو دخلنا
المدينة فبتنا ؟ ثم قلنا : لو عرضنا أنفسنا على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فإن كانت

لنا توبة وإلا ذهبنا؟ فأثناه قبل صلاة الغداة ، فخرج فقال : من القوم ؟ فقلنا : نحن
الفرارون . فقال : لا بل أنتم العكارون ، أنا فئتكم ، وأنا فئة المسلمين قال : فأثناه حتى
قبلنا يده . وهكذا رواه أبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، من طرق عن يزيد بن أبي زياد
وقال الترمذي : حسن لا نعرفه إلا من حديثه . ورواه ابن أبي حاتم ، من حديث يزيد بن
أبي زياد به . وزاد في آخره : وقرأ رسول الله - صلى الله عليه وسلم - هذه الآية : (أو
متحيزا إلى فئة) قال أهل العلم : معنى قوله : " العكارون " أي : العطافون . وكذلك قال
عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - في أبي عبيد لما قتل على الجسر بأرض فارس ،
لكثرة الجيش من ناحية المجوس ، فقال عمر : لو انحاز إلي كنت له فئة . هكذا رواه
محمد بن سيرين ، عن عمر . وفي رواية أبي عثمان النهدي ، عن عمر قال : لما قتل أبو
عبيد قال عمر : يا أيها الناس ، أنا فئتكم . وقال مجاهد : قال عمر : أنا فئة كل مسلم . وقال
عبد الملك بن عمير ، عن عمر : أيها الناس ، لا تغرنكم هذه الآية ، فإنما كانت يوم بدر ،
وأنا فئة لكل مسلم . وقال ابن أبي حاتم : حدثنا أبي ، حدثنا حسان بن عبد الله المصري ،
حدثنا خلاد بن سليمان الحضرمي ، حدثنا نافع : أنه سأل ابن عمر قلت : إنا قوم لا نثبت

عند قتال عدونا ، ولا ندري من الفئة : إمامنا أو عسكرينا ؟ فقال : إن الفئة رسول الله -
صلى الله عليه وسلم - . فقلت إن الله يقول : (إذا لقيتم الذين كفروا زحفا فلا تولوهم
الأدبار) فقال : إنما نزلت هذه الآية في يوم بدر ، لا قبلها ولا بعدها . وقال الضحاك في
قوله : (أو متحيزا إلى فئة) المتحيز : الفار إلى النبي وأصحابه ، وكذلك من فر اليوم إلى
أميره أو أصحابه . فأما إن كان الفرار لا عن سبب من هذه الأسباب ، فإنه حرام وكبيرة
من الكبائر ، لما رواه البخاري ومسلم في صحيحهما عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال
: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : اجتنبوا السبع الموبقات . قيل : يا رسول الله ،
وما هن ؟ قال : الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل
الربا ، وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات
ولهذا الحديث شواهد من وجوه آخر ؛ ولهذا قال تعالى : (فقد باء) أي : رجع (بغضب
من الله ومأواه) أي : مصيره ومنقلبه يوم مياعده : (جهنم وبئس المصير) وقال الإمام
أحمد : حدثنا زكريا بن عدي ، حدثنا عبيد الله بن عمرو الرقي ، عن زيد بن أبي أنيسة ،
حدثنا جبلة بن سحيم ، عن أبي المثني العبدي ، سمعت السدوسي - يعني ابن الخصاصية

، وهو بشير بن معبد - قال : أتيت النبي - صلى الله عليه وسلم - لأبأبعه ، فاشترط علي :
شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن أقيم الصلاة ، وأن أؤدي
الزكاة ، وأن أحج حجة الإسلام ، وأن أصوم شهر رمضان ، وأن أجاهد في سبيل الله .
فقلت : يا رسول الله ، أما اثنان فوالله لا أطيقهما : الجهاد ، فإنهم زعموا أنه من ولي
الدبر فقد باء بغضب من الله ، فأخاف إن حضرت ذلك خشعت نفسي وكرهت الموت .
والصدقة ، فوالله ما لي إلا غنيمة وعشر ذود هن رسل أهلي وحمولتهم . فقبض رسول
الله - صلى الله عليه وسلم - يده ، ثم حرك يده ، ثم قال : فلا جهاد ولا صدقة ، فيم
تدخل الجنة إذا ؟ فقلت : يا رسول الله ، أنا أبأبعك . فبأبعته عليهن كلهن . هذا حديث
غريب من هذا الوجه ولم يخرجوه في الكتب الستة . وقال الحافظ أبو القاسم الطبراني :
حدثنا أحمد بن محمد بن يحيى بن حمزة ، حدثنا إسحاق بن إبراهيم أبو النضر ، حدثنا
يزيد بن ربيعة ، حدثنا أبو الأشعث ، عن ثوبان ، عن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال :
ثلاثة لا ينفع معهن عمل : الشرك بالله ، وعقوق الوالدين ، والفرار من الزحف . وهذا
أيضا حديث غريب جدا . وقال الطبراني أيضا : حدثنا العباس بن الفضل الأسفاطي ،

حدثنا موسى بن إسماعيل ، حدثنا حفص بن عمر الشني ، حدثني عمرو بن مرة قال :
سمعت بلال بن يسار بن زيد - مولى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : سمعت
أبي حدث عن جدي قال : قال رسول الله : من قال : أستغفر الله الذي لا إله إلا هو
وأتوب إليه ، غفر له وإن كان قد فر من الزحف . وهكذا رواه أبو داود عن موسى بن
إسماعيل ، به . وأخرجه الترمذي ، عن البخاري ، عن موسى بن إسماعيل به . وقال :
غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه . قلت : ولا يعرف لزيد مولى النبي - صلى الله عليه وسلم
- عنه سواه . وقد ذهب ذاهبون إلى أن الفرار إنما كان حراما على الصحابة ؛ لأنه - يعني
الجهاد - كان فرض عين عليهم . وقيل : على الأنصار خاصة ؛ لأنهم بايعوا على السمع
والطاعة في المنشط والمكره . وقيل : [إنما] المراد بهذه الآية أهل بدر خاصة ، يروى
هذا عن عمر ، وابن عمر ، وابن عباس ، وأبي هريرة ، وأبي سعيد ، وأبي نضرة ، ونافع
مولى ابن عمر ، وسعيد بن جبير ، والحسن البصري ، وعكرمة ، وقتادة ، والضحاك ،
وغيرهم . ووجبتهم في هذا : أنه لم تكن عصابة لها شوكة يفيئون إليها سوى عصابتهم تلك ،
كما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض ؛

ولهذا قال عبد الله بن المبارك ، عن مبارك بن فضالة ، عن الحسن في قوله : (ومن يولهم يومئذ دبره) قال : ذلك يوم بدر ، فأما اليوم : فإن انحاز إلى فئة أو مصر - أحسبه قال : فلا بأس عليه . وقال ابن المبارك أيضا ، عن ابن لهيعة : حدثني يزيد بن أبي حبيب قال : أوجب الله تعالى لمن فر يوم بدر النار ، قال : (ومن يولهم يومئذ دبره إلا متحرفا لقتال أو متحيزا إلى فئة فقد باء بغضب من الله) فلما كان يوم أحد بعد ذلك قال : (إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان [إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا]) (ولقد عفا الله عنهم) [آل عمران : 155] ، ثم كان يوم حنين بعد ذلك بسبع سنين ، قال : (ثم وليتم مدبرين) [التوبة : 25] (ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء) [التوبة : 27] . وفي سنن أبي داود ، والنسائي ، ومستدرک الحاكم ، وتفسير ابن جرير ، وابن مردويه ، من حديث داود بن أبي هند ، عن أبي نضرة ، عن أبي سعيد أنه قال في هذه الآية : (ومن يولهم يومئذ دبره) إنما أنزلت في أهل بدر وهذا كله لا ينفي أن يكون الفرار من الزحف حراما على غير أهل بدر ، وإن كان سبب النزول فيهم ، كما دل عليه حديث أبي هريرة المتقدم ، من أن الفرار من الزحف من الموبقات ، كما هو مذهب

الجماهير ، والله [تعالى] أعلم .